- والمهدى مهاجرته بيت المقدس ، ويظهر فى مكة عند صلاة العشاء ، ومعه راية رسول الله وقميصه وسيفه ، ويبايع بين الركن والمقام ، يبايعه الغرباء . ثم ملك مكة وأشرافها ـ كما يقول محمد أحمد نفسه ـ وقد مات رحمه الله قبل أن يرى مكة . . .

- والمهدى يحثى المال بيديه حثيا ، وتنعم الأمة به نعمة لم تر مثلها ابدا. ولم يكن الأمر كذلك مع محمد أحمد . . .

- والمهدى يصلحه الله فى ليلة ـ بعد أن لم يكن كذلك ـ ولو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول ذلك اليوم حتى يلى . . وقد عرف عن محمد أحمد ، أنه نشأ صالحا ، وعاش ورعا ، وكان فى تقواه وزهده متشددا .

- والمهدى موعود بملك العالم ، وقد اكد ذلك ـ محمد أحمد ـ نقلا عن النبى . وقد مات وعاش داخل حدود وطنه .

- والمهدى يفتح القسطنطينية وغيرها من المدن ، وقد توفى محمد أحمد قبل أن يحقق نبؤته بالزحف الى القاهرة لخلع الخديوى توفيق ، واراحة مصر والمصريين من ظلمه .

- ومحمد أحمد يقول : ان النبى أخبره بأن السنوسى من وزرائه ، وخليفة عثمان بن عفان فى مملكته . وقد مات محمد أحمد دون أن يتحقق شىء من هذا كله ، ورفض السنوسى حتى الرد على[٧] رسائله . .

وقد كان موت محمد أحمد المفاجىء . وقبل تحقيق ما وعد به من فتوح ومعارك باعثا على الشك والريبة فى أمره ، وفى صحة دعوته ومهديته ، وقد شعر بذلك أقرب أنصاره ، وأخلص حواريه وتلامذته ، وكان أول صدى لهذه الخواطر الدفينة والشكوك الكامنة ذلك المنشور الذى صدر بتوقيع الخلفاء يعلنون فيه مبايعة عبدالله التعايشى خليفة عن مهدى الله ورسوله ﷺ . . . وكما أن النبى ﷺ لما انتقل قام بالأمر من بعده. خلفاؤه الكرام وأصحابه. فكذلك خليفة المهدى عليه السلام.

فأن له به أسوة ، فلذا يقوم بأمر الدين بعده خلفاؤه وأصحابه ، حتى ينصر الله دينه ويفتح على أيديهم من المدائن مالم يفتحه الله فى زمن المهدى عليه السلام[٨] . . !

أما الشيخ اسماعيل الكردفانى[٩] فقد كان اكثر وضوحا فى تعبيره حيث قال: ولا يضيق بك العطن ، ويكب بك جواد الفطن فتكون فى حيرة من فهم المراد من بشرى سيد الوجود للمهدى عليه السلام بأن الله يفتح له جميع البلاد . فتقول: قد مات المهدى عليه السلام وانتقل الى دار الكرامة ، قبل فتح جميع البلاد :

فاعلم أنار الله بصيرتنا وبصيرتك ، وطهر من داء الأوهام والشكوك سريرتنا وسريرتك ان المهدى عليه السلام هو خليفة الله فى أرضه على خلقه وأمينه على رعاية خلقه ، وقد علم ايقاء ابدو والحمر ، والقامليون بالوبر والمدر . أن ألوية الاسلام لم تنشر على يد أحد- بعد النبيين - أوفر دينا، وأصدق يقينا من سيدنا محمد المهدى ، وأن جميع مايصدر عنه قولا وفعلا مؤيد بالكتاب والسنة ، فليس قول من أقواله ، ولافعل من أفعاله ، الا وله شاهد من حديث النبوة والرسالة ، واشراق من مشكاة الأنوار المصطفوية التى أخجلت الغزالة . . !

هذا وقد نقل بعض الثقات فى هذا الشأن كلام الخليفة الأكبر - خليفة المهدى - سيدنا عبدالله التعايشى . . !

فأحببت أن أذكره بلفظه وهو : من زعم أنه ليس بالمهدى المنتظر حيث لم يستكمل الفتوحات . فقد أخطأ طريق الحق ، لان خليفته الاكبر منبع العرفان والتحقيق ، ذكر فى بعض منشوراته مايرد ذلك حيث قال : وانتقال المهدى عليه السلام الى الدار الآخرة قبل فتح مكة والقسطنطينية وغيرها من الأمصار ، لايقدح فى كونه مهدى آخر الزمان. لان النبى ﷺ أخبر فى حياته بفتح بعض البلاد كاليمن والشام وأضاف ذلك الى نفسه الشريفة ، ثم لم يكن فتح ذلك على يده الشريفة . بل كان على يد خلفائه الكرام بعد انتقاله (ص) ، ولم يقدح ذلك فى نبوته عليه الصلاة والسلام ، اذ لاغرو فى نسبة فعل خلفائه اليه ، وقد أخبر أنبياء الامم السابقة أممهم ببعثة نبينا محمد (ص) وذكروا لهم أنه يفتح الامصار ، ومعلوم أنه لم يفتح

فى زمنه الا مكة وخيبر ، وكان بقية الفتح على يد خلفائه من بعده ، وعلى طريقته المثلى أتى خليفته المهدى . فجميع ما أضيف اليه من فتح البلاد ، ولم يحصل فى حياته ، فلابد من حصوله على يد خلفائه وأصحابه[١٠]» .

غير أن هذه الاحلام والتمنيات لم تتحقق، وأدى الخلاف على ميراث الزعيم الى الفرقة والتمزق ، وانفرد التعايشى بالسلطة ليصبح الحاكم المطلق .

ولكن الانجليز لم يتركوه يهأ طويلا بهذا المجد ، فقد عادوا على رأس قوة مشتركة (انجليزية ومصرية) لاحتلال السودان ، وانتهى الأمر بمقتل التعايشى بعد تخريب بيته فى أم درمان . !

لقد ضاع السودان نفسه ، وكانت جريمة بريطانيا بنبش قبر محمد أحمد وسرقة رأسه[١١] ! ثم انه ليس ضروريا أن يعلن الرجل المختار لهذه المهمة عن نفسه . . . الأنبياء والرسل هم الذين يعلنون عن دعوتهم من طبيعة «النبوة» الاعلان والانذار حتى لاتكون للناس على الله حجة ، وطبيعة «المهدية» تختلف عن طبيعة النبوة فالمهدية تجديد واحياء وحركة ، وقد لا يعرف المرشح لهذه المهدية أنه المهدى نفسه . . .

ان العالم سيشاهد رجلا تمثلت فيه صفات الكمال الخلقى ، وزعيما تجسدت فيه آمال البعث والاصلاح الدينى، وقائدا تميز بصفات نادرة قلما تجتمع فى شخص عادى ، وعلى ضوء ما يقوم به هذا الامام الجليل من عمل ، وبقدر ما يحققه للاسلام من عزة ، وبالمقارنة بين عصره وبين ماكان قبله من فساد ، وطغيان وظلم، وما تحقق على يديه وفى عصره من اصلاح وصلاح وعدل ، يعرف الناس أنه هو الرجل المنتظر ، والمهدى الذى يعم عدله جميع البشر[١٢] . .

ومن الواضح أن هذا الرأى لايتعارض مع المفهوم «السنى» لشخصية «المهدى» فالمهدى عند أهل السنة ليس شخصا معينا ولا معروفا ، وقد كان محمد أحمد أو «المهدى السودانى» سنيا مالكيا ، وحتى لو تجاوزنا حدود هذه الدائرة العقيدة بالتصور السنى لشخصية المهدى ، الى الدائرة الاخرى المقيدة بالتصور

الشيعى فلان يقيد ذلك شيئا بالنسبة لمهدية محمد أحمد ، لان المهدى المنتظر عند الشيعة معروف اسما ، ومعروف شخصا وينتظرون فرجة قريباً وهو بالتاكيد شخص آخر غير محمد أحمد[١٣] .

محمد أحمد اذا . . . لم يكن هو «المهدى المنتظر» الذى تحدثت عنه الكتب والروايات والاساطير ، واذا لم يكن هو المهدى المنتظر فما الذى جعله مصرا على موقفه هذا حتى الرمق الاخير . . ؟

فى نظرنا أن هذا الموقف يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية لعبت دورها فى مهدية محمد أحمد .

هذه العوامل . . . منها ما هو شخص خاص ، ومنها ما هو فكرى عام اما الجانب الفكرى العام فيتمثل فى فساد الاوضاع الداخلية التى كان يعانى منها السودان ، على النحو الذى ذكرنا فى الفصل الخاص بالثورة والجهاد[١٤] ، وقد شاهد محمد أحمد فيما شاهده أرواحامهدرة ، وحريات مغتصبة ، واملاكا منهوبة ، وبلادا مخربة ، والناس بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم الى الشهوات والغواية ، وبين فقراء طحنتهم الفاقة ففقدوا زمام التجمل والصبر ، وانجرفوا - على قلة ذات اليد - الى الفساد والهاوية ، ثم ان حكومة القاهرة ارسلت اليهم أمثال بيكر ، وغوردن ، وهؤلاء نصارى لايدينون بدينهم ، وكان اسلوبهم فى الحكم موسوما بالتحدى لشعائر الاسلام وفرائضه ، حتى تصور الناس أن الحكومة تريد بهم شرا وبدينهم ، وكان من عادة محمد أحمد أن يخرج سائحا مع أصحابه لانذار الناس ودعوتهم «وقد جال فى جميع البلاد ورأى بعينه وجد الناس - خاصتهم وعامتهم - على الحكومة ، وشدة رغبتهم فى التخلص منها حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور المهدى الموعود لانقاذهم من الحال التى كانوا عليها . وكلما رأوا رجلا يفضلهم دراية وعقلا متصفا بالغيرة على الدين ظنوه المهدى المنتظر[١٥]» .

لقد ترك هذا كله أثرا فى نفس «محمد أحمد» فانصرف الى التأمل والدراسة، واتجه الى الاعتكاف والخلوة ، لقد تاقت نفسه أن يكون هو هذا الرجل الذى

«ينتظره» الناس ، وبات يحلم بهذا المنصب الذى يحكم بين البشر بالعدل والقسطاس . . لقد لعبت العوامل النفسية والشخصية دورها فى نفس محمد أحمد ، واضطرمت فى قلبه جذوة الشوق والوجد ، انه صوفى عريق فى التصوف ، والصوفية يعتمدون على الذوق والالهام والكشف ، وفى عالم الصوفية مجال فسيح للرقى والسمو ، ولشيخه «محى الدين بن عربى» فى ذلك كلام جميل وحلو[١٦] . . !

. . . فاذا خلا العبد الى نفسه ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لابلسانه فهناك تنفتح عين القلب ، ويصبح الانسان قادرا على أن يبصر فى اليقظة مايبصره فى النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا . والمناظر الجميلة التى لايمكن شرحها ولا وصفها ، وينكشف له ملكوت السموات والأرض . اذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم راجع الى أنه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعلم المادى والاقبال على مافيه من لذات حسية ، لانلبث أن تعرض له حتى تزول[١٧]» .

لقد أصبح «محمد أحمد» نجما فى الفلك الصوفى . ومن خلال تحليقه ودورانه فى هذا الفلك بدأ يشاهد من أنواره مايشاهد . . . انه يرى الرسول ويكلمه ويلتقى به ويحدثه ، واجتماعه بالأقطاب والأولياء صارشيئا عاديا ، والتقاؤه بالخضر عليه السلام يكاد يكون يوميا !

انها أنوار باهرة من غير شك ، ومن شدة هذه الأنوار يفقد الانسان توازنه فى غمرة هذا الفيض ، وينتهى المرء الى حال من الهيام والسكر والجذب . . .

ألم يقل أبو يزيد البسطامى : سبحانى ما أعظم شأنى لا اله الا أنا فاعبدونى[١٨] ؟ ! . . والحلاج . . ؟ ألم يقل هو الآخر . . أنا الحق[١٩] !

ذلك من شأن الصوفية الذى لايخضع لمنطق العقل ، ولا يلتزم بظاهر النص ، وما دام الامر لايخضع لمنطق العقل ولا يلتزم بظاهر النص . فمناقشته حينئذ مضيعة للجهد والوقت .

ولكن الذى لانسلم به لاصحاب المكاشفة والوجد ، أن ينسحب ما يرونه ويشاهدونه على الناس فى كل عصر ، وأن يصبح ذلك تشريعا يفرض بالقوة والفعل، أو يخرج مكاشف ليقول : أنا المهدى أو الامام المنتظر لخلاص الناس . فى هذا العصر . . وقد ذكر الشيخ محمد عبده[٢٠] : أن الهام المتصوف «ذوق» وجدانى لايجوز له أن يدين به غيره ، وأن للصوفية أذواقا خاصة وعلما وجدانيا ، ولكنه خاص بمن يحصل له ، ولا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ، فان هذا الذوق يخضع للانسان فى حالة غير طبيعية وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية فلا يجوز أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية ،

وقد ذكر العلامة الشيخ محمد حبيب الله بعد ذكره لاقوال العلماء فى جواز رؤية النبى (ص) مناما ويقظة فقال[٢١] :

اذا علمت ما قررناه من امكان رؤيته ﷺ فى اليقظة كرامة لبعض خواص أكابر الاولياء ، فاعلم أن فائدة ذلك انما تعود غالبا على الرائى فقط ، ولا يجوز أن يثبت بها حكم شرعى كائنا ما كان ندبا أو غيره من سائر الاحكام الشرعية ، كما تعطيه قواعد الشرع المعلومة ، وكما صرح به الائمة كالحافظ بن حجر وغيره. فقد قال فى «فتح البارى» بعد بحث طويل عند قوله عليه الصلاة والسلام : ولا يتمثل الشيطان بى «مانص المراد منه ، ومع ذلك فقد صرح الائمة بأن الاحكام الشرعية لا تثبت بذلك .

قال ابن السمعانى : وانكار الالهام مردود ، ولكن التمييز بين الحق والباطل فى ذلك أن كل ما استقام على الشريعة المحمدية ، ولم يكن فى الكتاب والسنة ما يرده فهو مقبول ، والا فهو مردود ، اذ قد يقع حديث النفس ، و وسوسة الشيطان ثم قال : ونحن لاننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه ، يزداد به نظره ، ويقوى به رأيه ، وانما ننكر أن يرجع الى قلبه بقول يعرف أمله ، ولا نزعم أنه حجة شرعية وانما هو نور يختص الله به من يشاء ، فان وافق الشرع كان الشرع هو الحجة .

وقد قال الابى[٢٢] فى شرح صحيح مسلم ـ عند حديث «من رآنى فى المنام فقد رآنى فأن الشيطان لا يتمثل بى» ـ قال ما نصه :

واختلف قول الفقهاء فيما لو قال (أى النبى) لرائيه : امرأتك طالق ثلاثا ، هل يلزمه الطلاق ثلاثا ، أو لايلزمه شيء ؟

قال القرافى ـ وهو أى عدم الطلاق ـ هو الاظهر ، لأن اخباره فى اليقظة مقدم على اخباره فى النوم ، لان احتلاله الغلط فى ضبط المثال فى النوم أرجح من الغلط فى ضبط عدم الطلاق . كما ينطبق ذلك أيضا على رائيه فى اليقظة بطريق خرق العادة فما أخبربه الرسول فى حياته الدنيوية مقدم على أى أخبار آخر اذ لا تشريع بعد ذلك[٢٣] . . .

فليتصور الصوفى ماشاء الله ان يتصور ، وليرَ من الكرامات والخوارق ماشاء الله أن يرى ويفعل ، انها مسائل خاصة لاتتجاوز شخصه ولا يجوز بحال أن تصبح قاعدة ملزمة لغيره .

وإلا . . . لو سلمنا بكل ما يقوله الصوفى فى أحواله الخاصة ، واعتبرنا ما يقوله ويشاهده قاعدة عامة ، لاختل ميزان الثقة فى كثير من الأمور الشرعية ، واضطرب حبل الدين فى كثير من القضايا المسلمة ، وأصبح لكل «واصل» و «عارف» مذهب وطريقة خاصة ، وانتهى الامر بالاسلام والمسلمين الى كارثة . !

لقد كان «محمد أحمد» رجلا من هذا النوع الشديد الحساسية . كانت فيه شفافية ورقة ، وكان اكثر احساسا بالام وطنه وشعبه ، وهذا النوع من الناس يمكن التأثير عليه بسهولة ، واستغلال جوانب الخير والصلاح فى نفسه ، واقناعه بأى عمل يعتقد فيه الصلاح والخير لامته ، وقد استغل فيه هذه الناحية رجل كان على النقيض منه فى ذلك كله ، كان هذا الرجل هو عبدالله التعايشى ، وكان التعايشى هذا مغرما بالامجاد والبطولة ، تواقا الى النفوذ والسلطة «. . . وقد بذل والده عناية خاصة فى تعليم أبنائه ، ولكنه وجد عناء اكبر مع عبدالله ، فعبدالله اشتهر بانصرافه عن علوم الدين وحفظ القرآن . . ! ولكنه كان يتشوق دائما الى اخبار الغزوات والبطولات ، واشتهر منذ أيامه الاولى بالشجاعة والبأس ، وانضم «للزريقات»[٢٤] فى حربهم مع

الزبير رحمة باشا[٢٥] ، و وقع أسيرا فى يد الزبير الذى أمر بقتله ، لولا أن تشفع له الفقهاء ورجال الدين ، ولكن روحه المتعطشة للمجد رأت فى ـ الزبير رحمة باشا ـ وقت أن كان فى أوج قوته وشهرته أنه المهدى المنتظر !

فأرسل اليه مبشرا أنه حلم حلما رأى فيه : أن الزبير هو المهدى المنتظر ، وأنه (أى عبدالله) سيكون وزيره . . ! !

فرد عليه الزبير زاجرا وأمره بعدم تكرار هذا الحديث[٢٦] .

وقد كان والد عبدالله التعايشى ممن يشتغلون بالتنجيم والسحر ، وكان «التعايشة» اذا أرادوا غزو جماعة أخرى استشاروه قبل القيام بهذا الغزو» فلما تقدمت به السن ، عهد بحرفته تلك الى ولده عبدالله ، فاشتغل بهذه الحرفة فترة من الزمن، ولكن طموحه لم يكن ليتوقف عند «ضرب الرمل» وقراءة «الطالع» وكتابة التعاويذ والتمائم . . . !

ان فى الرجل ذكاء وقوة شخصية ، لقد سئم هذا الحرفة وهاجر بحثا عن المجد . . . كانت أحاديث المهدية تملأ الجو ، وكان توقع ظهور المهدى حديثا على كل لسان[٢٧] ، فذهب الى الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية وقال له : أنت المهدى المنتظر ! لقد كرر ما فعله مع «الزبير» ! ان الرجل يبحث عن أى مهدى ! انه يستعجل ظهوره ليصبح هو مستشاره و وزيره ..!

لقد رفض الشيخ محمد شريف هذه اللعبة ، ثم قال له قبل أن يغادر بيته : اذا كنت تبحث عمن يقول بذلك : فعليك بتلميذى السابق محمد أحمد !

كان محمد أحمد فى ذلك الوقت يقيم قبة على قبر شيخه القرشى وكان الشيخ القرشى ـ كما ذكرنا سابقا ـ قد أعلن بأن من يختن أولاده ويبنى قبة على ضريحه سيكون هو المهدى ! وبينما هو على هذه الحال اذ وفد عليه التعايشى ، وخر ساجدا بين قدميه يتمرغ ويبكى ! وحين سأله «محمد أحمد» عن سبب ذلك قال ! كان لى أب صالح من أهل الكشف ، وقد أخبرنى قبل وفاته أننى سأقابل المهدى،

وأكون وزيره ! فلما نظرت اليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى والدى بها فابتهج قلبى لرؤية مهدى الله وخليفة رسوله[٢٨] !

لقد أكد التعايشى ـ بهذا الكلام ـ وصية الشيخ القرشى ، وزكى فى نفس ـ محمد أحمد ـ الشعور بأنه المهدى ، واستطاع بقوة شخصيته ودهائه دفع ـ محمد أحمد ـ إلى المسارعة باعلان انه المهدى .

وقد ذكر ـ على المهدى ـ أن مجىء الخليفة عبدالله ، قدم اعلان الدعوة سنتين ! ولو تاخر عشر سنوات لتأخرت عشر سنوات[٢٩] ! وهو قول يجعل من «التعايشى» رأس هذه الفكرة ، والعقل المخطط لهذه الدعوة[٣٠] .

وقد حفظ محمد أحمد للتعايشى هذه اليد ، وجعله الوارث لدعوته وخلافته من بعده وأوعد كل من يتناول أعماله وتصرفاته بالنقد «. . . لان جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب ، لانه أوتى الحكمة وفصل الخطاب، ولوكان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم . . ! ومن تكلم فى حقه ولو بالكلام النفسى فقد خسر الدنيا والآخرة ، ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة[٣١]» .

«وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام أن الاولياء اجتمعوا فى بيت المقدس يقولون: الحمد لله الذى اظهر المهدى وجعل عبدالله وزيره، ثم وجد (أى الخضر) اجتماع الشياطين وهم يقولون : كان عيشنا بالغش والخداع فأتى المهدى وقطع علينا عيشنا ، ولولا أن عبدالله وزيره لكنا نجد فى المهدية دخولا[٣٢]» .

«فحيث علمتم ذلك يا أحبابى أن الخليفة عبدالله منى وأنا منه فتأدبوا معه كتأدبكم معى ، فجميع ما يفعله بأمر النبى ﷺ ، أو باذن منا ، لابمجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى ، بل هو نائب عنه ﷺ فى تنفيذ أمره[٣٣]» .

وسواء أكان محمد أحمد هو المهدى أو لم يكن . . . فلن يغض ذلك من قيمة الرجل الذى فجر فى السودان أكبر ثورة اسلامية فى القرن الثالث عشر الهجرى ـ التاسع عشر الميلادى .

لقد بدأ ثورته ببضع رجال مسلحين بالحراب والعصى . ولكن مقدرته الفائقة فى الهاب الجماهير ، واشعال نيران الجهاد والحماس ، مكنته من هزيمة الحكومة فى كل معركة خاضتها ضده ، واستطاع وهو الصوفى البسيط أن يقهر خمسة جنرالات أقوى دولة أوربية كان من بينهم أشهر القادة البريطانيين استخدم المهدى الدين استخداما مثاليا ، ومزج بينه وبين الحياة مزجا رائعا ، فالاسلام هو الذى قاوم ، والاسلام هو الذى جاهد ، والاسلام هو الذى انتصر فى النهاية على التعصب والصليبية .

ومنذ وطىء الاستعمار أرض الاسلام ، كان من اهم أهدافه سحق هذه العقيدة ، أو عزلها عن الحياة والحركة ، أو تشويهها على أيدى المبشرين والمرتزقة لانه يعلم الاسلام اباء «يرفض الذل ، وقوة تحتقر الضعف ، وثورة على كل مظاهر الاستعباد ، والاستبداد والظلم .

ان الاسلام هو الذى حمى الوطن الاسلامى فى الشرق من هجمات التتار ، ومن هجمات الصليبيين على السواء ، ولو انتصر الصليبيون فى الشرق كما انتصروا قديما فى الاندلس ، أو كما انتصر اليهود حديثا فى فلسطين ما بقيت قومية عربية ، ولا جنس عربى ، ولا وطن عربى ، والاندلس قديما ، وفلسطين حديثا كلاهما شاهد أنه حين يطرد الاسلام من أرض فانه لاتبقى فيها لغة ولا قوميه بعد اقتلاع الجذر الاصيل .

والاسلام هو الذى كافح فى الجزائر مائة وثلاثين سنة ، وهو الذى استبقى أرومة العروبة ، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة فى اللغة والثقافة ، هنالك قام الاسلام ـ وحده ـ فى الضمير يكافح الغزاة ، ويستعلى عليهم ، ولا يحنى رأسه لهم ، وبهذا ـ وحده ـ بقيت روح المقاومة فى الجزائر ، حتى أزكتها من جديد الحركة الاسلامية بقيادة عبدالحميد بن باديس ، فأضاءت شعلتها من جديد ، وهذه الحقيقة يعرفها جيدا الفرنسيون والصليبيون . والاسلام هو الذى كافح فى برقة وطرابلس ضد الغزو الايطالى وفى أربطة السنوسية وزواياها تمت بذور المقاومة ، ومنها انبثق جهاد عمر المختار الباسل النبيل .

والأسلام هو الذى هب فى مراكش ، حين أرادت فرنسا سن قانون يعود بقبائل البربر الى عقائدهم التى كانوا عليها قبل الاسلام ، وفصلهم عن اخوانهم المسلمين فى الشمال ، وكانت هذه المحاولة هى الشرارة التى أشعلت الفرنسيين النار . . !

والاسلام هو الذى كافح فى الهند - قبل التقسيم - وكان المسلمون دون غيرهم هم أبطال الجهاد ضد الاستعمار والبريطانيين .

لقد كافح الاسلام لان عنصر القوة كامن فى طبيعته ، كامن فى بساطته ، ووضوحه وشموله ، كامن فى الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد ، وفى رفض التلقى الا منه ، ورفض الخضوع الا له .

ومن أجل هذه الخصائص فى الاسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة لانه يقف لهم فى الطريق ، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية ، كما يعوقهم عن الطغيان والتأله فى الارض .

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والابادة ، ويتربصون به الدوائر فى كل ناحية ، ويفزعهم ويرعبهم قيام أية حركة تحمل لواءه ، أو ترفع شعاره أو تنادى بالعودة الى شرائعه وأحكامه .

ولقد كانت حركة مهدى السودان - رغم مايشوبها من تصورات خاصة - حركة أرهبت دول الاستعمار ، وحركت فيهم كوامن الفزع والخوف ، وأرقت ليالى مطامعهم السود فحاصوا حيصة حمر الوحش الى النار والسيف . . !

كانت حركة تمثلت فيها كل حركات الاصلاح فى عصره فقد أخذ من حركة «محمد بن عبدالوهاب» دعوته الى العقيدة الصحيحة ، والعودة الى الكتاب والسنة، والتوجه الى الله وحده بالدعاء والعبادة . لان «. . . من كان يوحد الله ، ويرجو لقاء الله ، لايميل الى شيء دونه ، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته لان الله هو المحى والميت ، والرازق والمقيت ، فمن تسب الى غيره عطاء أو منعا ، أونفعا

أوضرا ، فقد ظلم بوضع الشيء فى غير موضعه ، ونسب نعمة لغير من ينعم ، ونسب ضرا لغير لم يضر[٣٤] ، وكل من نظر الى شيء دون الله ، واعتقد من قلبه أنه ينفع أو يضر فقد اشرك فى الحقيقة ، اذ أن كل ماسوى الله باطل، لانه لا قوام له بنفسه، فكيف يقوم به غيره[٣٥]؟ «وقد سلك» مهدى السودان «مسلك الوهابية[٣٦] فى اعتبار ماعدا قطره من الاقطار التى لاتؤمن بدعوته أقطارا غير اسلامية ، لان الناس بظهوره» . . . يدخل فى الاسلام من جديد[٣٧] . .». . .

« . . . وقد حرضنى رسول الله (ص) على قتال الترك المخالفين لمهديتى وسماهم كفارا ، بل هم أشد كفرا ، لانهم ساعون فى اطفاء نور الله[٣٨]» .

وكما وقفت دولة الخلافة من الحركة الوهابية ، موقف العداء والمحاربة ، فكذلك فعلت هذه الدولة مع الحركة المهدية وكان من عجائب القدر ، أن الجيش الذى كلف بقمع الحركة الوهابية ، هو نفسه الجيش الذى قاوم الحركة المهدية ، كان هذا الجيش هو الجيش المصرى، وبعبارة أدق جيش حكام مصر من الارناءود والشركس ، ولقد هزمت الحركة الوهابية فى معركتها العسكرية مع دولة الخلافة ، وانتصرت الحركة المهدية فى هذه المعركة ضد الانجليز ، والارناءود والشركس ، الا أن الحركة الوهابية انتصرت بعد ذلك فكريا وعقديا . بينما انتهت الحركة المهدية لتصبح بعد ذلك حزبا دينيا سياسيا[٣٩] .

واذا كانت الحركة الوهابية قد أثرت فى الحركة المهدية ، فكذلك فعلت الحركة السنوسية ، لقد كان السنوسى من تلامذة محمد بن عبدالوهاب ، الا أنه استطاع صياغة الحركة الوهابية فى صيغة جديدة ، وتخلى عن أسلوبها فى العنف والثورة واختط لنفسه منهجا جديدا فى الاعداد والحركة فهو لم يشأ أن يصطدم مع دولة الخلافة ، أو يعلن تمرده على الحكام والسلطة ، لقد ترك هذا كله جانبا وانصرف إلى البناء والتربية ، كان من أصول دعوته ، تخليص العالم الاسلامى من البغضاء والفرقة وكان يرى أن تفرق الناس الى مذاهب عدة ، عامل من عوامل الضعف فى الامة اذ «. . . انه لاواجب الا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله

ورسوله ، ولم يوجب الله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الامة فيقلده دون غيره ، وهل قال بذلك أحد من الائمة ؟ فيا للعجب ! ماتت مذاهب أصحاب رسول الله ، وبقيت مذاهب أربع أنفس فقط من الائمة[٤٠] .

وقد وقف المهدى من المذاهب موقف الحركة السنوسية فالمهدى أمر «برفع المذاهب، وتطهير الارض من الخلاف، حتى لايبقى الا الدين الخالص[٤١]. «وما للعب الا الأعمال الموافقة للكتاب والسنة[٤٢]» .

«والذى ينقذكم من الهلاك هو أن تتركوا معارفكم السابقة[٤٣]» .

وكانت الحركة السنوسية مهتمة باقامة مجتمع اسلامى تتحقق فيه التربية الاسلامية الصحيحة، ومن أجل ذلك دعت المسلمين الى الهجرة من دارالكفر الى دارالاسلام و «. . . ان اولئك الذين يمتنعون عن المهاجرة فى سبيل الله ورسوله ، فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير[٤٤]» .

وكذلك كانت الدعوة الى الهجرة لاقامة الدين من أصول الحركة المهدية ، لان مخالطة الاشرار تدعو الى الشر ، ومصاحبة الفجار تدعو الى الفجر «. . . ولا مخلص من ذلك الا بالهجرة وفى ذلك مالا يخفى من الادلة كتابا وسنة ، وقد أمرنى سيد الوجود ﷺ بمكاتبة المسلمين ، ودعوتهم الى الهجرة الى محل يكون فيه قوام الدين ، واصلاح أمر الدارين[٤٥]» .

وكان من العادات المعروفة عند السنوسية أن يتبرع كل فرد من أفرادها «بعمل يوم» فى الزاوية ومرافقها ، فتطلب من الاخوان العمل فى الزرع والتعمير والانشاء ، وتحث التجار على دراسة الاسواق التجارية ، واتخاذ الوسائل الناجحة فى التجارة والاستثمار ، على أن يخصص قسم من هذه الارباح للحركة ومؤسساتها العامة[٤٦] ، فقد كانت الحركة السنوسية حركة متكاملة من كل ناحية ، وكان أفرادها يعيشون معا فى ايثار وترابط ومحبة .

وقد اقتبست الحركة المهرية هذه الفكرة من السنوسية الا أنها طبقتها بطريقة

ثورية كعادتها فى العمل والحركة . فقد أمر المهدى بالاستيلاء على مرافىء السفن وغيرها من المرافق التى تدر أرباحا طائلة «. . . لكون هذا الزمن ليس فيه أحد يبذل ماله لتجهيز «الغزوات» والسرايا ، وكذلك كل من وجد مالا كنزه واستأثر به، وسعى فى زيادته ، ولا يجهز به غزوة ولا سرية[٤٧]» .

لقد كانت الحركة السنوسية إحدى الحركات الاسلامية، التى ألهمت المهدى السودانى وأثرت فى فكره ، ولما كان السنوسيون قد أنشأوا زواياهم فى السودان الغربى ، ثم فى السودان المصرى وكثر أتباعهم فى تلك الجهات ، فقد رأى محمد أحمد أن يجذب اليه السنوسى لجملة أسباب ، لعل أهمها ماكان يرجوه محمد أحمد من نشر نفوذه ، وامتداد سلطانه الى الامارات الاسلامية فى افريقيا الغربية ، اذا دانت له السنوسية بالطاعة ، أضف الى هذا ماكان يرجوه محمد أحمد أيضا من استخدام السنوسيين فى حربه المنتظرة ، وكان محمد أحمد قد بيت النية على غزو مصر ، وطرد الانجليز الكفرة[٤٨] . .

لقد أثرت الحركة السنوسية المهدية بالكثير من أفكارها وتعاليمها ، وكان المهدى حريصا على اجتذاب السنوسى اليه كما قدمنا .

واذا كانت الحركة المهدية قد عبرت عن الحركتين «الوهابية» و «السنوسية» بدرجات متفاوتة ، لقد كان تعبير هذه الحركة عن «الحركة الأفغانية» اكثر وضوحا واكثر فعالية ، لقد وجدت آراء جمال الدين الأفغانى وتعاليمه ، فى الحركة المهدية فرصة نادرة لتنفيذها وتطبيقها . فقد كان من رأى جمال الدين ـ كما يقول لوثروب ستودارد[٤٩] ـ أن العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مناهض للشرق على العموم ، وللاسلام على الخصوص، وأن الروح الصليبية لم تزل كامنة فى الصدور كمون النار فى الرماد ، وجميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا[٥٠] .

وكان من رأى جمال الدين : الوقوف بقوة ضد الغزو الاجنبى والتدخل

الخارجى فى شئون البلاد الاسلامية ، وقد خص دولة بريطانيا بالنصيب الاوفر من جهاده وهجومه ، لأن هذه الدولة ـ كما كان يعتقد ـ هى السبب الرئيسى فيما حل بالعالم الاسلامى كله ، وكان يرى أنها وراء كل مخطط يسعى لتحطيمه وتدميره .

ولم تكن عداوته للاستبداد أقل ـ من عداوته للاستعمار ـ شراسة وضراوة . فالشعب يجب أن يحكم نفسه بنفسه ، وكل حاكم يجب أن يقف عند حده ، فاذا لم يرعو هذا الحاكم ويلتزم حده ، وجب على الشعب أن يقول : لابأعلى صوته !

ولما كان هدمه قيام حكومة اسلامية متحدة ، فقد يرى لتحقيق ذلك أولا : انهاض دولة اسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام بشئونها ، حتى تلحق الامة بالامم الغريزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدين مجده .

لقد كانت حركة الافغانى حركة ضد الاستعمار والاستعباد ولم تكن حركة المهدى الا ثورة ضد هذين الوبائين[٥١] !

كانت حركة الأفغانى ضد التدخل الاجنبى فى كل صوره وأشكاله وكان المهدى واضحا فى موقفه ضد هذا التدخل بكل انواعه ، وقد نعى على «الخديوى توفيق» سقوطه فى يد «أعداء الله الانجليز»[٥٢] واتخاذه الكافرين أولياء من دون الله والاستعانة بهم على سفك دماء أمة محمد»[٥٣] ، وحين كتب اليه غوردن ـ بعد تعيينه حاكما عاما على السودان ـ يطلب منه الاتفاق على وقف الحرب «وفتح الطريق لزياره قبر النبى عليه السلام وحقن دماء المسلمين[٥٤] . . ! «كتب اليه المهدى متهكما : كيف يقوم من هو على خلاف سكة رسول الله يفتح باب زيارة قبره ؟ !» :

فأن كنت شفيقا على المسلمين، فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها باتباع دين الحق[٥٥] . . !» .

وبعد أن توفى المهدى ، وتولى التعايشى شئون الحركة من بعده كتب يقول الى الخديوى توفيق فى المعنى نفسه :

لقد حملتنا الشفقة عليك ، على تحرير هذا اليك . فان كنت من أهل الغيرة على الدين ، وتريد الفوز عند ربك ، والتخلص من أسر اعدائه الكافرين ، فبادر الى اجابة الدعوة ، واندرج فى سلك أهل الصفوة ، لتكون الأمة المحمدية يدا واحدة على قطع دابر الفئة الكفرية ، أو ينيبوا لامر رب البرية[٥٦]» .

كما كتب ـ اى التعايشى ـ الى السلطان عبدالحميد يعيب عليه موقفه، ويقول له فى رسالته[٥٧] : ما كان الظن بك أن تحيد عن طريق الصواب ، وترغب عن اتباع السنة والكتاب ! فالعجب كل العجب من اعراضك عن اجابة داعى الهدى ، واتباعك لشهواتك الى الردى ! وتمكينك للاعداد من بلاد الاسلام ، وأنت تزعم أنك والى المسلمين ، الذاب عن حرم الدين ! وما كان يجب منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتركن الى مودتهم ومتابعتهم، وما هذه الطاعة لاعداء الله ومتابعتهم ؟

فتذكر ذلك ، وانتشل نفسك من أوحالك ؟! . فأجب داعينا بتسليم الامر لنا، والمبادرة الى فعل أحد امرين : اما جهاد الكافرين ، واخراجهم من بلاد الاسلام كمصر وغيرها صاغرين ، وأما السعى للاجتماع بنا لنقوم جميعا بنصرة الدين وقطع دابر القوم الكافرين[٥٨]» .

وكانت قصة الاثارة فى رسائل التعايشى ، تلك الرسالة التى بعث بها الى «الملكة فكتوريا» والتى نقتطف تلك الاجزاء المثيرة منها :

«الى عزيزة قومها فكتوريا ملكة بريطانيا[٥٩] !

سلام على من اتبع الهدى . . . أما بعد . فاعلمى أن الله عزوجل هو ملك الملوك القادر المقتدر الذى لايعجزه شىء ولو أراد أن يهلك أعداءه فى أقل من خاطرة بال لكان جديرا بحصول مراده ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين !

وانى ادعوك الى الاسلام . فان أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، واتبعت المهدى عليه السلام ، وأذعنت لحكمي ، فأنى سأقبلك

وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير . وتكونين آمنة ومطمئنة ، لك ما لنا ، وعليك ما علينا ويغفر لك الله مافرط منك فى من الكفر ! ، وإن أبيت الا الجحود اعتمادا على ما عندك من الاستعدادات والجنود فاعلمى أنك فى غرور كبير ، وبعد عن السداد والتدبير !

وإن كنت تظنين توهما أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر ـ أحمد باشا عرابى ـ الذين أدخلت عليهم الغش بالدنيا حتى مكنوك من الاستحصال على البر المصرى فهذا توهم فاسد ؟ و غزور كاسد[٦٠] !

ثم مما يقضى عليك . . . أنك بعد أن بلغك ظهور المهدى المنتظر عليه السلام ، ومحاربة دول الترك له ، وظفره بهم فى عدة وقائع . . سولت لك نفسك أن فيك الكفاية لحربه، والاستيلاء عليه، فبادرت الى ارسال أحد رجالك المشاهير، المدعو هكس باشا ، ومعه جيش عرمرم مؤلف من أجناس شتى ، وعدد منوعة ، توهما منك أنك ستظفرين بالنصر على جند الله الغالب ، فلما حضر ذلك الجيش ، ما ثبت أمام حزب الله الا نصف ساعة ، بل قضى الله عليه بالدمار والبوار عن آخره ، وكان هلاك ذلك الرجل المدبر الشجاع بسبب سوء تدبيرك وكثرة غرورك ! ولم تغن عنه كثرة العدد ، ولا قوة العدد بل صار الى النار وغضب الجبار[٦١] !

ثم ما اعتبرت بذلك ، بل صرت تجهزين عساكرك جردة بعد[٦٢] جردة لمحاربة الله ، ورسوله ، ومهديه . تارة «بسواكن» وتارة «بدنقلة» وتارة «بوادى قمر» حتى أهتكت[٦٣] بسوء صنيعك من رجالك ماينوف على الالوف ، وبسبب ذلك[٦٤] هلك كثير من رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير . كالجنرال غوردن باشا هلك بالخرطوم ، والجنرل ستيوارت هلك بأبى طليح ، والجنرال استيوارت الثانى هلك بوادى قمر وفلان وفلان. ومع كثرة دعواك التقدم فى مجالات الحروب ، وتفوهك بقوة البأس والشجاعة . فما بال عساكرك رجعت من السودان القهقرى بالخيبة والهزيمة ؟ ! وكل هذ من سوء تدبيرك واستبدادك برأيك عن باقى الدول ، ولو عملت بالمشورة[٦٥] معهم ، لارشدوك الى ما يسكن روعك ،

وكانوا اما أن يشيروا بالكف عن مصادمة حزب الله ، أو يمدوك بالرجال والاسلحة، وحينئذ لايتوجه عليك العار وحدك عند ذلك حصول الهزيمة . بل يكون ذلك بالاشتراك[٦٦] . . ! ! !

لقد كانت الحركة المهدية صدى قويا للثورة الفكرية التى أثارها الافغانى فى الشرق الاسلامى كله ، فقد حارب المهدى فى ميدانين ضد الاستعمار والظلم ، وانتصر فى حربه على اكبر امبراطورية عرفها التاريخ حتى هذا اليوم ، وقد عرضت بريطانيا عرش السودان على الافغانى لتضرب به المهدى ، فرفض الحكيم الثائر هذه «الرشوة» لأن «السودان ليس لبريطانيا حتى تبيع فيه وتشترى[٦٧]» .

لقد أدرك الافغانى أبعاد هذه اللعبة ، فوقف ـ ومعه الشيخ محمد عبده ، وراء الحركة يؤازرانها بكل قوة .

لقد كان هذا الموقف من الأفغانى موقفا تفرضه العقيدة والمروءة بعد أن انتقم له المهدى من الخديوى توفيق ؟ ان جمال الدين لايزال يذكر هذا اليوم الذى أبعده فيه الخديوى عن القاهرة وحيدا من غير رفيق !

لقد أخذ المهدى بثأره ، وكان أخذا عزيزا . فقد فيه الخديوى السودان بأسره .

لقد كان المهدى «أفغانيا» فى شكل صوفى ، وكان الأفغانى «مهديا» فى طابع سياسى ، وكان الرجلان معا ظاهرة من تلك الظواهر المشرقة فى سماء الاسلام الذى يعرف متى وكيف يشرع سيفه ، ومتى وكيف ينكس للباطل رأيته ورأسه . . . !

ولسوف يبقى اسم محمد أحمد لافتة مضيئة فى تاريخ السودان . الذى وجد فيه أمله ، وحطم به قيده ، واستعاد به روحه ، وكرامته ، وحريته . . .

*- مدير مجلة الازهر .

١- انظر فى هذا الموضوع :

سنن ابن ماجة الحديث رقم ٢/٤٠ ، ٣٠٨٣ج ٢

سنن الترمذى الحديث رقم ٢٢٣٢ج ٤

سنن ابى داود الحديث رقم ٤٢٨٤ ، ٤٢٨٤ج ٤

سنن الامام أحمد الحديث رقم ٧٧٣ - ٦٤٥ج ٢

الحاوى للفتاوى (رسالة العرف الوردى فى اخبار المهدى) ص ١٢٣ وما بعد ماج ٢

٢- منشورات المهدية ص ١٨ .

٣- منشورات الامام المهدى ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

٤- المصدر السابق ص ٢٨٤ .

٥- منشورات الامام المهدى ج ٢ ض ٧١ .

٦- لقد أعلن محمد أحمد دعوته فى غرة شعبان سنة ١٢٩٨هـ .

٧- انظر فى هذا .

- جغرافية و تاريخ السودان ص ٧٠٧ وما بعدها .

- السنوسية دين ودولة ص ٧١ وما بعدها .

٨- منشورات المهدية ص ٨٨ من المنشور الصادر فى رمضان سنة ١٣٠٢هـ .

٩- سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى ص ١٨٥ وما بعدها .

١٠- المصدر السابق ص ١٨٧ .

١١- جغرافية و تاريخ السودان ص ١٢٨٩ .

١٢- انظر فى هذا المعنى كتاب «موجز تجديد الدين واحيائه» للعلامة المودودى ص ٦١ ، ٦٢ .

١٣- المهدى المنتظر عند الشيعة الاسامية الاثنا عشرية هو محمد بن الحسن العسكرى المختفى فى سرداب الى أن يحين وقت ظهوره .

انظر الفصل الخاص المجددية كظاهره فى التاريخ الاسلامى .

١٤- الفصل الثانى من الباب الرابع .

١٥- جغرافية و تاريخ السودان ص ٦٤٣ .

١٦- يقول ابن عربى :

والولى يشترك مع النبى فى ادراك ما تدركه العامة - فى حالة النوم - فى حالة اليقظة وقد اثبت هذا المقام للاؤلياء من أهل طريقنا . وهو الفعل بالهمة ، والعلم من غير معلم من المخلوقين غير الله . وهو علم الخضر .

الفتوحات المكية ج ١ ص ١٥١ .

١٧- كيمياء السعادة - الامام الغزالى - ط القاهرة ١٣٤٣هـ ص ١٨ وما بعدها .

١٨- الحياة الروحية فى الاسلام - دكتور محمد مصطفى حلمى - ص ١٠٣ .
١٩- المصدر السابق ص ١١٢ .
٢٠- محمد عبده - تاليف - عباس العقاد - ص ٢٣٩ -
٢١- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم - ص ١٨٧ وما بعدها .
الجزء الثالث ، ط الحلبى - القاهرة .
٢٢- المصدر السابق ص ١٨٨ .
٢٣- المصدر السابق ص ١٨٩ .
٢٤- احدى قبائل السودان .
٢٥- كان الزبير باشا من حكام الاقاليم فى السودان ، وقد اشتهر بالشجاعة والبطولة ، وانتصر فى عدة معارك ، كما ان ذاعقل وكياسة ومرؤة .
٢٦- كردى - ص ٩١ .
٢٧- الحركة الفكرية فى المهدية . ص ٦ ، ص ٧ .
٢٨- جغرافية و تاريخ السودان ص ٦٤٤ .
٢٩- سعادة الستهدى - هامش صفحة ٩٤ .
٣٠- انظر فى هذا ايضا . الاسلام فى القرق العشرين - عباس العقاد - ص ١٤٠ .
٣١- منشورات المهدية ص ٦٧ .
٣٢- المصدر السابق ص ٧٧ .
٣٣- المصدر السابق ص ٦٦ .
٣٤- منشورات المهدية ص ٣٠ .
٣٥- المصدر السابق ص ٢٩ .
٣٦- كان هذا مسلك الوهابيين فى أول الامر ، ثم عدلوا آراءهم بعد ذلك .
٣٧- منشورات المهدية ص ٣٠٢ .
٣٨- المصدر السابق ص ٧٤ ، منشورات الامام المهدى ج ٢ ص ١٦ .
٣٩- للاستزادة من نقط التقارب بين الحركتين الوهابية والمهدية . انظر الفصل الخاص بالمصادر السافية فى فكر المهدى .
٤٠- السنوسية دين ودولة ص ٤٣ .
٤١- منشورات المهدية ص ٦٢ .
٤٢- المصدر السابق ص ١٣ .
٤٤- المصدر السابق ص ٤٨ .

٤٤- السنوسية دين ودولة ص ٤٨ .
٤٥- منشورات المهدية ص ٢٠ .
٤٦- السنوسية دين ودولة ص ٤٨ وما بعدها .
٤٧- منشورات المهدية ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
٤٨- السنوسية دين ودولة ص ٧٢ .
وانظر فى هذا الموضوع ايضا .
- الفصل الخاص بالتيارات الاسلامية .
- الفصل الخاص بالفكر السافى .
٤٩- حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٣٠٦ .
٥٠- المصدر السابق ص ٣١٧ .
٥١- انظر الفصل الخاص بالجهاد والثورة .
٥٢- منشورات الامام المهدى ج ٢ ص ٢٨٠ .
٥٣- المصدر السابق ص ٢٨١ .
٥٤- منشورات المهدية ص ٣٢٠ .
٥٥- منشورات الامام المهدى ج ٢ ص ١١٠ .
٥٦- جغرافية و تاريخ السودان ص ١٠١٣ .
٥٧- المصدر السابق .
٥٨- جغرافية و تاريخ السودان ص ١٠٢١ .
٥٩- المصدر السابق ص ١٠١٥ .
٦٠- جغرافية و تاريخ السودان ص ١٠١٦ .
٦١- جغرافية و تاريخ السودان ص ١٠١٦ .
٦٢- حملة بعد حملة .
٦٣- يقصد : قتلت .
٦٤- فى الاصل : ومن ذلك .
٦٥- فى الاصل : ولو رفعت الشورة .
٦٦- جغرافية و تاريخ السودان ص ١٠١٧ .
٦٧- العروة الوثقى ص ٣٥ .

الأسر فى الجاهلية والاسلام

للدكتور أحمد مختار البرزة

تزخر كتب الأوائل بمنظوم كثير خاص عن القرائح فى السجون ، لو افردت قصائده ومقطوعاته واخبار قائليه فى كتاب لملأت غير سفر ضخم. وما ينشر من قديم مخطوطات الأدب والتراجم والتاريخ يزيد فى هذه المادة يوما عن يوم . ذلك ان السجن مس كثيرا من كبار الشعراء مساً رفيعاً ، وأوغل فى حياة بعضهم ايغالا .

وتعداهم إلى جمهور من أهل العلم والأدب والفكر وذوى الرئاسات والفضل ممن كانت لهم قدرة على النظم ودراية ومشاركة . فكان لهم من المحنة باعث لتحريك الوجدان ، وسبب للابانة عما فيه بجلى البيان .

وعلى ضخامة هذه المادة لم تظفر هى وشعر الأسر من الأقدمين بتأليف أو تبويب مستقل. ولايظن أن مثل هذا التصنيف ـ لو أرادوه ـ كان بعيدا عن متناولهم وهم الذين ضمنوا تضاعيف مجلداتهم هذا الانتاج الثرى للسجناء . والمرجح انهم كانوا يحيدون عن هذا الغرض حيدا خوفا من نقمة السلطان اذ كانوا يضعون مصنفاتهم لرعاة الأدب من الملوك والخاصة ، فلا يعرجون من هذا الجانب على ما يسخطهم . فاذا ألموا بحبس الرجال تناولوه برفق وأظهروا منه جانب الذلة والاستعطاف ، ولايطلقون لأنفسهم عنان السرد إلا مع الشعراء الذين انقضت مدة الدولة التى حبسوا فى عهدها .

وما اخرجته المطابع من تأليف الأقدمين كاف لتقدير هذا النوع من الأدب

ولاظهار خصائصه . ولايلبث الباحث بعد جمع مادته وتصنيفها أن يلمح أهميتها فى أبعادها الحقيقية . فهو أمام شعر يواجهه فى غير ظروف المناسبات المكرورة التى اكتنفت العديد من فنون الشعر عند العرب تميزت بطابع من التكلف ولامناص من التحرى عن الدوافع الحقة من وراء القول حتى ذاك الذى يبرر فى إطار المناسبات من السجن ، فلا يمكن اغفال عملية التمويه النفسى فى ثناياه واستنباط المشاعر الغارية من وراء اللبوس الكاذب .

والحق أن جلاء التجربة الذاتية عند الشاعر السجين وسبر أغوارها هى هدف الباحث . والشاعر غير معزول عن الناس والأحداث . وليست نكبته ، عندما تخلو من الجريرة أو الجنحة الفردية الا اثراً من آثار الحياة العامة التى تحيط به . ولاسبيل الى إدراك المرامى الصحيحة للشعر إلا اذا أعير هذا الجانب اهتماماً كافياً واعتباراً ملائماً . فاذا التزم هذا المنهج قاد الأدب الباحث الى ميادين السياسة والخلافات ظاهرها وباطنها ، والى المجتمع فى مختلف طبقاته غنيها وفقيرها ، وخاصتها وسوقتها ، والى تخالل مستوياته الاخلاقية والفكرية ، وإلى رصد التحركات الشعبية والثورات ، وما يضطرم فيها من النقمة والاستياء ، وما يثقلها من الظلم والتفاوت ، وماتؤول إليه من الانحراف والفساد. وأدخلنا الى حياة خاصة، وتخطى بنا المظاهر الخلابة الى الانسان المتسلط ونظرته إلى المبادىء والأهداف وتعامله معها ، والى تهتكه وجبروته ، وما يمتروه من نعيم وبؤس وعزة وذلة ، والى أثره فى مجرى الحياة وقريب الاحداث وبعيدها .

إن أدب السجن فى قرارة أمره يفتح نافذة على دراسة حياة العرب فى القرون الوسطى دراسة امينة دقيقة . ويحمل على تقرى العوامل الكبرى المؤثرة فى تاريخهم الذى لانكاد نعرفه الا من خلال كبار الاشخاص والحوادث الجسام . وان هذه الدراسة لتقدم المفتاح للكشف عن التيارات التى لاتزال مستورة، وكانت فعالة فى توجيه تاريخهم وما دار فيه من الدوائر العظام .

وإذا كان لهذا الأدب مثل هذه الاهمية فان تقويمه ينبع من تقدير ظروف

البيئة من زمان ومكان وأشخاص وأحداث تقديرا دقيقا . فلا مندوحة من التعرف على الوسط المكانى الذى نشأ فيه هذا الشعر على مر العصور وعلى الوسط الاجتماعى الذى نما فيه ثم المام بالظروف العامة او الخاصة التى اوطنت قائليه فى الحبوس . فان الأدب متأثر بهذه العوامل جملة .

وأما الوسط الاجتماعى فهو أهل السجون من سجانين وسجناء ، وأما ظروف السجن فهى الأحداث التى حملت الشعراء الى الحبس ومن ورائها شتى العوامل والمؤثرات السياسية والاجتماعية والفكرية والذاتية .

ومن ثم ينظم هذا الفصل جوانب ثلاثة : السجون ، ومجتمع السجن وطرق الشعراء الى السجن .

ويعتمد تجلية هذه الجوانب على شتات الاشعار والاخبار . فتستخلص - ما ساعف البحث - صورة متلائمة الاقسام تصدق الواقع التاريخى . فان كتب الاولين لم تتناول هذا الوصل بايجاز او تفصيل فى بحث جامع إلا يسيرا نادرا[١] .

السجون : أماكنها وأنواعها

انبثق فى سجون العرب قبل الاسلام وبعده طائفة حسنة من الشعر . وهى سجون مفرقة فى القدم كانت تنتشر فى ثنايا ممالكهم ، ميزتها عصور تاريخية بطوابع كانت سيماء السياسة والحكم ، وما اضطرب فى المجتمع من اتجاهات وأحداث .

وتقدم فى الفصل الاول اشارات الى الامكنة التى كان الأسرى والمحبوسون فى الجاهلية يحتجزون فيها[٢] بدء اتخاذ السجن فى الاسلام :

وبدأت جزيرة العرب بمعرفة السجن الخاضع للسلطة التنفيذية منذ ظهور الدولة فى الحجاز ، بعد هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة[٣] . وكان اتخاذه تدريجيا موافقا للتطور الذى يتخطى فيه المجتمع النظام القبلى والاعراف إلى احكام الشرع فنشأ نشوءً طبيعيا يوافق مرحلة الانتقال . فكان الحبس أول الامر - كما كان فى القبيلة - يعرض السجن فيه عرضا ، وتزول عنه صفة السجن